المحاضرة الثانية :

نظرية المحاكاة :

يقصدبالمحاكاة : المماثلة ، المشابهة ، التقليد ...

يتفق الدارسون على أن نظرية المحاكاة أول نظرية أدبية ظهرت في تاريخ الأدب في القرن الرابع قبل الميلاد ، و تعود أصولها إلى الفيلسوف اليوناني أفلاطون Ploton (427ق م – 347 ق م) وقد أعاد صياغتها تلميذه أرسطو Aristote (384 ق م – 322 ق م)

كما تعود الأصول الأولى لنظرية المحاكاة إلى تأثر الأدب الروماني بالأدب اليوناني ، فالأدب الروماني من أقدم الآداب التي عرفت تأثرا بالثقافات الأجنبية ، فقد اجتاح الجيش الروماني سنة 146 ق م بلاد اليونان و حقق انتصارا ساحقا أثر كثيرا على العالم القديم ، و بالرغم من هذا الانتصار استطاع اليونانيون أن يلحقوا بأعدائهم هزيمة ثقافية بتأثير أدبهم في أدب الرومان الذين انتصروا عسكريا و انهزموا ثقافيا و أدبيا أمام التراث الأدبي و الثقافي اليوناني الضخم و الغني .

هكذا إذن تحول الأدب الروماني إلى محاكاة واضحة للأدب اليوناني ، و ذلك ما أفقده تميزه و أصالته فالأدب اليوناني أصل و الأدب الروماني مجرد صدى ، كل ذلك بمثابة تمهيد لظهور نظرية المحاكاة في عصر النهضة الأوروبية (من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر) حين نحا ، أي توجه ، الأدباء اللاتينيون إلى محاكاة الأدب اليوناني و اقتفاء أثره من أجل النهوض بأدبهم .

لكن مفهوم المحاكاة عند الفيلسوف اليوناني أفلاطون مختلف ، فقد كان لديه مفهوم خاص لهذه النظرية التي اعتبرها جوهر الفن ، فهي عنده محاكاة لعالم المثل و ليس لعالم الواقع .

1 – آراء أفلاطون فيما يتعلق بنظرية المحاكاة :

تحدث أفلاطون عن فن الشعر في كتاباته التي جاءت على شكل محاورات و أهمها " أيون " ، " الجمهورية " " القوانين " و لم يخصص أفلاطون كتابا مستقلا يعالج فيه الظاهرة الأدبية الفنية . فآراؤه حول الأدب تستقى فحسب من هذه المحاورات . و مع أنه خصص جزءا كاملا من الجمهورية هو الكتاب العاشر الذي يتحدث فيه عن الأدب و الفن ، فإن كل كتاباته حول حقيقة الأدب و أثره إنما كانت تأتي عرضا و تهدف أساسا إلى تبيان أثر الشعر في سلوك المواطنين . ففي جمهوريته المثالية حيث يصنف الناس و يحدد وظائفهم كان لابد من تحديد وظيفة الشعراء فيها و دور الشعر .

يرى أفلاطون أن كل الفنون قائمة على التقليد (محاكاة للمحاكاة) ، و ينطلق في هذا من إيمانه أن الكون مقسم إلى عالم مثالي و عالم محسوس طبيعي مادي .و العالم المثالي أو عالم المثل يتضمن الحقائق المطلقة و الأفكار الخالصة و المفاهيم الصافية النقية . أما العالم الطبيعي أو عالم الموجودات فهو – بكل ما يحتويه من أشياء و أشجار و أنهار و أدب و لغة ...الخ – مجرد صورة مشوهة و مزيفة عن عالم المثل الأول الذي خلقه الله ، و بتعبير آخر إن العالم الطبيعي محاكاة لعالم المثل و الأفكار الخالصة لذلك فهو ناقص و مزيف وزائل . فالأشجار المتعددة في العالم الطبيعي مجرد محاكاة لفكرة الشجرة الموجودة في عالم المثل . و تعدد الأشجار في العالم الطبيعي علامة على عدم تطابقها مع تلك الفكرة و علامة على أنها ناقصة و مشوهة .

وقد نظر أفلاطون إلى الفنون الجميلة (الرسم ، الموسيقى ، الشعر ...) على أنها أقل مرتبة من العلم و الفلسفة و الصناعة ...لأن فيها بعد عن إدراك جوهر الحقائق و لأن جهدها ينحصر في نقل مظاهر الأشياء و خيالاتها فقط . فعمل الأديب ، بالنسبة لأفلاطون ، يشبه عمل المرآة ، أي أن محاكاته للأشياء و الظواهر آلية فوتوغرافية أي حرفية و لذلك فهو لا يقدم سوى صورة مزيفة لا حاجة لنا بها لأن ما نحتاجه و ينفعنا هو الأصل لا الصورة .

و يبدو أن أفلاطون لا يزال مصرا على تأجيج الصراع بين الشعر و الفلسفة إذ أن الأشياء التي تمثلها الفنون حقائق جوهرية يدركها العقل ، و الشاعر بعيد تماما عن استخدام العقل و بالتالي بعيد عن الحقيقة التي يعدها أسمى الغايات ، و لذلك يتحدد مكان الفن و الأدب عنده بمقدار ما يقدمه في مجال هذه المعرفة . و المعرفة أو الحقيقة عنده لا تلتمس من خلال الحواس لأن المحسوس جزئي وهمي زائل شأنه شأن العالم الطبيعي الناقص المزيف . و تبعا لذلك فإن أفلاطون يرفض الشعر و الفن لأنه لا يعالج الحقيقة بل يكتفي بتمثيل معطيات الحواس التي هي في حد ذاتها صورة ممسوخة للحقيقة و بعيدة عنها بثلاث درجات فالحقيقة لا تلتمس عند الشعراء بل عند الفلاسفة لأن الشعراء يخاطبون العاطفة أكثر مما يخاطبون العقل .

مما تقدم يتبين أن بحث أفلاطون في ماهية الأدب ووظيفته كان منصبا على بيان أثره في السلوك الإنساني ، أي كان يدور حول الأخلاق و المعضلة الأخلاقية ، لذلك فصل أفلاطون بين المتعة و المنفعة و اهتم بالمنفعة وحدها. و بهذا يعد أفلاطون أول من ميز بين النقد الأخلاقي و النقد الجمالي ، و قد اهتم– كما رأينا – بالنقد الأخلاقي ، أي بتأثير الفن و الأدب على سلوك الجمهور و قد اعتبر هذا التأثير غير صالح و غير خير بشكل دائم لذلك قام بطرد الشعراء من جمهوريته أو على الأقل بضبط أعمالهم و مراقبتها ، و لهذا السبب ليس للشاعر مكانة كالفيلسوف .